بقلم خليل رامز سركيس . منشورات الندوة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٥

يمكننا النظر الى ثلاثية خليل رامز سركيس ، التي بدأها « بايام السماء » (١٩٦٠) واثناها « بارضنا الجديدة » (١٩٦٤) فجاء كتابه الاخير « مصير » (١٩٦٥) يجمع بينها ويتمّها، من زاوية الفكرة التي يعبر عنها نيتشه في العديد من كتاباته. فلقد كتب نيتشه عام ١٨٨٧ (« اصل منشأ الاخلاق ») في معرض نقده للنظرية العلمية الى الكون — من كوبرنيكوس الى داروين — تلك النظرية التي اخذت تحل محل « علم الفلك اللاهوتي » شيئا فشيئا منذ كوزانوس ، يقول :

« أوَ ليست ارادة الانسان لتصغير نفسه في تقدم مستمر منذ كوبرنيكوس ؟ آه ، لقد قضي على ايمانه بكرامته وفرادته وانقطاع نظيره في سلم الكائنات ؛ اصبح حيوانا ، حيوانا لا مثيل له ،... بدون نقصان او تحفظ ؛ وهو الذي كان ، حسب اعتقاده الاسبق ، قريبا من الله : (« ابن الله » ، صورة الله ») » .

ثم عاد وعبر عن ذلك في « ارادة القوة » حيث اعلن : «منذ كوبرنيكوس والانسان يكرج من مركز الوسط نحو اللانهاية».«يبدو ان الانسان... قد انتهى الى منحدر — انه يكرج بسرعة متزايدة مبتعدا عن نقطة الوسط — الى اين؟ الى لا شيء؟ »

من خلال ما تقدم يمكننا ادراك الخط الرئيسي الذي ينتظم جميع افكار المؤلف في تأملاته وخواطره . فالتركيز على مصير الانسان : « اي مركز في نظام الكون يشغل الانسان ؟ » (« ارضنا الجديدة » ص ٧٩) وجعل الانسان محور التفكير والتأمل ، لا بل نقطة الوسط في الكون : « الانسان هو الحدث الرئيسي في تاريخ الكون » (« ارضنا الجديدة » ص ٢٢) من اهم اتجاهات الفكر الفلسفي في هذا العصر . وهناك حقل فلسفي خاص قائم بذاته يعرف « بالانثروبولوجيا الفلسفية » ، كان الفيلسوف الالماني ماكس شيلر اول من دعا الى وضع اسسه في العشرينات وقام بنشاط رائد في هذا السبيل .

لكن خليل رامز سركيس يعالج موضوع الانسان والكون على الاخص من خلال آراء تيلار دو شاردان ومحاولاته التوفيقية الاصيلة كما شرحها في كتابه « الظاهرة الانسانية » (الذي نشر في فرنسا بعد وفاة مؤلفه عام ١٩٥٥ في امريكا) .

والثلاثية التي بين يدينا تعكس الكثير الكثير من مفاهيم تيلار دو شاردان ، وعلى الاخص فكرة الطاقة التي توحد العالم (« ارضنا الجديدة» ص ٩٧)، والنظر الى التقدم على انه حركة تحرر « الى الامام والى فوق » و « الايجاد الاساس » (« مصير » ص ٢٤ وغيرها) . هذه كلها تذكرنا بنظرة دو شاردان ورؤياه العلمية — الصوفية في آن واحد ، اذ هو ينظر الى الكون والانسان و « الله » بمنظار ارتقاء من نقطة الالف الى نقطة الياء العليا . ويعتبر الطاقة من اهم خصائص المادة والكائنات ، سواء اكانت طاقة خارجية بمعنى التماس او «مشعّة» تعمل في الداخل . ويرى الكون كله في وحدته وتعدده متجها صعدا في تطوره نحو ازدياد الوعي ومجاوزا ذلك الى النطق والفكر — الى طبقة العقل (Noosphere) . ولا يخلو كتاب « مصير » من هذه الآراء والمفاهيم ، لا بل نجد خليل رامز سركيس وقد استوعبها فصارت جزءا لا يتجزأ من تراثه الفكري الشخصي ثم اعاد خلقها في تأملاته وخواطره بصدق وجدة واصالة : « لست ابتغي تفسير الحياة . حسبي ان اكتشفها ، ما امكن ، لاعتنق مصيرا ينزع الى « الامام والى فوق » ، في وحدة شأو» (« مصير » ص ٢٥) . ولكنها ما زالت تحمل صدى قول دو شاردان : «Tout ce qui monte, converge ».

اما الناحية الاهم في ثلاثية خليل رامز سركيس فهي «النفس الاوغسطيني» الذي يطغى على تأملاته ومناجاته وكثير من المواقف والآراء التي ترجع الى القديس اوغسطين في محاولته التوفيقية بين التقليد الكلاسيكي وبين تعاليم الكتاب المقدس والايمان المسيحي الذي اكتشفه ثم اعتنقه فيما بعد . ولربما

كانت النزعة الاوغسطينية في تفكير المؤلف اقوى في « ايام السماء » و « ارضنا الجديدة » منها في « مصير »، مع انه في الكتاب الاخير يعتنق نظرية المدينتين : مدينة العالم ومدينة الله ـ الكنيسة ؛ التي اشتهر بها اوغسطين وحاول توضيح العلاقة ما بينهما على اساس زمانية العالم وتاريخيته وكون الكنيسة ما فوق الزمن (« مصير » ص ٢٦٧). ولو رجعنا الى الكتابين الاولين لوجدنا انفسنا امام توكيد اوغسطيني بارز: اوغسطين يعلم: « لا تذهب خارجا، عد الى صميم نفسك؛ الحقيقة تقيم في داخل الانسان » ، وخليل رامز سركيس يقول في « ايام السماء » « (ص ٥١) : « الطريق في الباطن ومداه في الانسان » ولا مصير في خارج الانسان (ص ٤٥) و « انا الانسان ، كون مختصر » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٣١) و « مغامرتي ذاتية اول كل شيء » (« مصير » ، ص ٩٢) . هذه العودة الى الداخل ، الى الصميم ، تجد تعبيرها الايجابي ، مثلا ، في فهم اوغسطين للزمن والتاريخ فهما ذاتيا يرتبط بالذاكرة في تذكرهـا ورؤيتها وتوقعها . وقد عبر مؤرخ الفلسفة ثندلبند عن هذا الاتجاه لدى اوغسطين واصفا اياه « بميتافيزياء التجربة الداخلية » .

وثلاثية خليل رامز سركيس فيها الكثير من غنى هذه التجربة وصدقها والتزامها للحقيقة الذاتية. لكنها في عودتها الى هذه التجربة لا تنسى الكون ولا تتخلى عن الابعاد الكونية، بل تعمد الى النظر الى الانسان من زاوية الكون ايضا: «رؤية الانسان رؤية كونية جامعة ؛ ليس الكائن الناطق شيئا يضاف الى الوجود . ولكن هو آية الوجود » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٤٩). وفي « مصير » نراه يعلن: «لم يبقَ في وسع العالم ان يعتنق عقيدة لا تشتمل على طاقات الكون» (ص ١٢٤) . اذاً البعد الكوني الذي تعبر عنه العقيدة الشاملة يسير جنبا الى جنب مع البعد التاريخي للانسان . ونحن نجد المؤلف يتحدث كثيرا عن « النمو بالتاريخ » او « العمل ناميا في التاريخ » (« مصير » ، ص ٨٤) . فالانسانية ، او المغامرة الكبرى ، تجد مداها الحيوي في العالم ، تدخل العالم وغايتها مجاوزة العالم، تخطيه والسمو عنه . هي تحامي عن الجسد ـ عن تربيته وخلقه خلقا جديدا والسهر على عافيته . لكنها تحامي عن الجسد ، لا كما يحامي عنه نيتشه ممن يزدرون مادته ويحتقرون طريقه وهم لا يتنبهون الى ان الجسد هو « العقل العظيم » والروح « آلة الجسد » و «العربة العقل العظيم » . بل كما ينظر اليه كلوديل : ليس الجسد هو الذي يحتوي الروح ، بل الروح هي التي تحتوي الجسد . (« ايام السماء » ، ص ٥٤) .

واذا كان المؤلف يولي الطبيعة والجسد والمادة هذا الاهتمام ، فهو لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يتعداه الى التشديد المستمر على ان تخطي الذات والطبيعة والكون من جوهر الانسان ومن صميم مغامرته الكبرى: « المجاوزة للطبيعة اساس المغامرة الكبرى » ، « انما خلقت لكي اتخطى ذاتي ابدا » (« مصير » ، ص ٢١٤) ، وتبنيه مفهوم العمل والحركة والمشاركة ، على ما في ذلك من تجريد : « العمل هو الصلاة بالفعل » ، « باعمالهم يصلون » (« مصير » ، ص ٦١ و ٦٣). هذا التبني يقصر في النظر الى جميع ابعاد العمل وعلى الاخص العلاقة التي تنشأ بين العمل ونتيجته او بين صانع العمل وصناعته ومصنوعاته . وهو البعد المجتمعي الذي ساهم كل من هيغل وماركس في توضيح مفهومه وتعيين اهميته القصوى بالنسبة الى الانسان في مغامرته الكبرى لتحقيق ذاته . وحين يعلن في « ايام السماء » ان « العمل لا يصنعنا . انما نحن صانعوه » (ص ٤٨)، يبدو لنا انه لا يفي العمل حقه بالنسبة للدور الذي يلعبه العمل في حياة الانسان من جميع الوجوه. فالتركيد على دور العمل في تحرير الانسان يغدو عنده مجرد تنبيه الى التزام العمل والمسؤولية والتاريخ. لكن النعمة،لا العمل، والكنيسة لا العالم ، هي التي تحرر الانسان في نهاية المطاف . وهذا تناقض صريح تعج به تعاليم اوغسطين عن الحرية والنعمة ، تناقض يعتبره البعض دليلا على عظمة تفكيره . اما خليل رامز سركيس فانه ينظر الى العمل والفعل من زاوية ميتافيزيائية بحتة لا تغمط العمل حقه في تكوين العالم وتغييره ، لكنها تقصر في تعيين الابعاد المحسوسة والاجتماعية في مفهوم العمل الواقعي، ومن ثم تفرط في التغني « ببطولة العمل » .

ما علاقة العمل بمفهوم المصير ؟ من خلال هذا السؤال يمكننا عرض الفكرة الرائدة في «مصير» ، وهي التي اضفت على الكتاب عنوانه . خليل رامز سركيس قلق على مصير الانسان في العصر الحديث. وحديثه عن القلق بابعاده المحلية والكونية لا ينتهي به الى « مأساة القلق » فحسب: « الانسان المعاصر علة قلقه » («مصير »، ص ٢١٢، بل يتعداه الى تبيان الناحية الايجابية للقلق او مـــا يسميه « في ايجابية معناه المؤمن » (« مصير » ص ٢١٣) . ومع ان « القلق في الوجود قديم كالوجود عينه » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٢٩) ، فان القلق والتوتر والحيرة قد بلغت اشدهـا في عصرنا هذا ، اذ ان الخليقة مدعوة في تواصلها الى التضامن اكثر من اي وقت مضى ولان الانسان « قد اعيته قوته، اذ فجر طاقـــات عجز ان يسيطر عليها حق السيطرة » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٣٨) . هذا الشعور بالعجز حيال الطاقات الكونية المتفجرة يدفع الانسان الى « رؤية مداه الحيوي » ، الى اكتشاف ارض جديدة ، الى التزام المصير والمغامرة الكبرى . والغفلة عن المصير (« ايام السماء »، ص ٣٥) هي « شر مـــا يتهدد الحضارة في الاعصر الحديثة » . ولا بد لانسان المغامرة الكبرى عند خليل رامز سركيس من « اعتناق المصير » ، اذ « مصيري هو العمل الذي انجزت » (« مصير » ، ص ٢٤) . و « التزام المصير » هو فحوى الدعوة التي تشارك في عمل التاريخ ، انه نقيض ما يدعوه المؤلف « بالاستقـــالة من الوجود » او الاعتزال و « الاضراب عـــن كل فعل » (« مصير » ، ص ٢٥٢) . الالتزام توكيد للوجود ، فعل حركة ، بينما الاستقـــالة ايذان بالسقوط . ولقد عبر خليل رامز سركيس عن التزام المصير في المغامرة الكبرى بانها « لا تفتأ تعتنق القضايا المعاصرة للانسان في كل عهـــد وارض » (« مصير » ، ص ٢٠٣) . فالانسان ليس قائما بنفسه لو لم يكن قائما بسواه . وهذا يذكرنا بعلاقـــة الانا والانت لدى فويرباخ وبوبر ، اذ انهما يفسران الحب على هذا الاساس . وعند خليل رامز سركيس يطالعنا نفس صوفي في قوله : « انني فيك . اي معنى للارض كان لولا هذا التداخل ؟ اي مصير ؟ لولاك لم ارَ نفسي ، ولا رأيت نفسك لولاي » (« مصير »، ص ١٧).

مغامرة خليل رامز سركيس لا حد لهـــا ، فالتساؤل والاستفهام لا يقف . حتى ان احدى الميزات الرئيسية في الثلاثيـــة المذكورة هي كون المؤلف يفكر – على غرار اوغسطين – بواسطة اسئلة وتساؤلات (« صـــرت سؤالا لنفسي » : اوغسطين) . وهذا من صلب مغـــامرته ، لان الانسان الناطق كلمته فعل وجود ، يتحقق ابدا ، يعمل فيتحقق (« بيتي – كلمتي روحا الى جسد– لم يكتمل بناؤه » : « مصير » ، ص ١٢) . وحين يقول: « فعل وجود اريد الكلمة »، يذكرنا بنظرة هيدغر الى اللغة (بمعناها الميتافيزيائي على انها « بيت الكينونة او الوجود ») . هذا الانسان – المغامرة لم يولد بعد ؛ « نحن ما نزال في طور التكوين » (« ارضنا الجديدة » ، ص ٩٨) ، والحياة لا تزال في البدء ، انها دائما في تخطي ذاتها ومجاوزة طبيعتها. وهذا بالضبط ما يعبر عنه نيتشه حين يقول عن الانسان انـــه « الحيوان الذي لم يكتمل بعد »، ولا بد من تخطيه او تكامله. (وقد ذكر جوليان هكصلي في مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب دو شاردان « الظاهرة الانسانية » ان دو شاردان يستشهد بقول نيتشه هذا ويستحسنه) . واستمرار الخلق او التوكيد على ان الخلق لم ينته بعد هو مـا يعلنه خليل رامز سركيس لكي يبرر التقدم والتطور : « لم يخلق الكون والانسان خلق نهـــاية لا تقبل المزيد ، وذلك في تصميم الالوهة بلا ريب » (« مصير » ، ص ٢٣٢) .

لكن سركيس لا يقبل بفكرة «العود الابدي»، لان العودة الدائمة (« لا جديد تحت الشمس ») فحواها التكرار بدل التحرر والابداع – حسب قوله . الرؤيا المؤمنـــة التي تلتزم مصير الانسان تكتمل باستمرار في الميلاد وفي الايمان المسيحي . وليس من الضروري ان يحول وفائي للارض دون الاله. المغامرة الكبرى في تطورها المبدع لا تستمر بلا حدود ، لهـــا تاريخ ، وهذا التاريخ يبتدىء وينتهي (لولا النهاية لانعدم اتجاه التاريخ) . اي ان المغامرة الكبرى لا تتعدى نطاق الزمـــان والمكان، اذ هي تخاف – او يخاف عليها المؤلف – من استمرارها في الصعود حتى تجاوز البشر الى الاله

(« مصير »، ص ٢٢٥). وهكذا تغدو المغامرة الكبرى مغامرة ايمان عند خليل رامز سركيس ، اذ الايمان « فحوى » تلك المغامرة (الايمان هو الاصل والعقل هو الفرع !) . وايمانه لا بد منه ، اذ « فاما ان اومن واما ان ازول » (« مصير » ، ص ١١٩). لكن هذا الايمان الملتزم لمشاكل الانسان والكون لا يتمسك بالعقيدة المتحجرة بل يتطور وينمو، لا يتنكر للتقدمية او الثورية ، يلتزم هموم العالم ، « يعتنق العالم » ولا يعمد الى الاستقالة « من ذاته ومن الآخرين » ولا يتردد في اتخاذ موقف منفتح من تراثه وتاريخه . فالالتزام الثوري ضرورة ايمانية : « ان ابيت الثوري ... يومئذ ، اخون الاله في انساني » (« مصير » ، ص ١٤٦) .

لكن خليل رامز سركيس يضيق على رحابة صدر انسان المغامرة المؤمن حين يتساءل : « الا ينبغي للحركة الملحدة ان تكف عن اضطهاد الايمان ، وخصوصا انها مطمئنة الى زوال الاله ؟ » (« مصير »، ص ١٤٧). فما الذي يمنع من التساؤل كذلك : « لم لا تكف بعض دعاة وغلاة الحركة المؤمنة عن اضطهاد الالحاد ، ما دامت هي مطمئنة الى وجود الاله وبقائه ؟ » اوليس خليل رامز سركيس هو نفسه الذي يعلن في مطلع «ايام السماء» ان « الله ليس اختراعا ، انما هو اكتشاف » ؟ لم لا يترك ارباب الايمان الحركة الملحدة وشأنها حتى يتسنى لها تحقيق ذلك الاكتشاف، بدلا من اكراهها على تقبل الاختراع؟ او لم يقل خليل رامز سركيس في « ارضنا الجديدة » (ص ٩٨) ان هذه الارض المنتظرة ، حيث تتحقق فيها بعض ايام السماء على الارض ، « سوف تعمرها شعوب لم يولد معظمها بعد»؟ الا يعتبر العمل نقطة التقاء المؤمنين والملاحدة؟

استخلص من كل ما تقدم ان ثلاثية خليل رامز سركيس – وعلى الاخص كتابه الاخير «مصير» – غنية بالرؤيا، تنظر الى الحياة قبل كل شيء على انها « فتح في الداخل » (« ايام السماء»، ص ٤٦) ، والى انسان المغامرة الكبرى على انه في صيرورة دائمة ، يعي مصيره ، « يعمل على مستوى الوعي الكوني »، يتشخصن، يبصر (« يشغل من الكون مركز العين ، رؤية وبصيرة ») ، تتنوع مغامراته مع تعدد اشخاصه ، يتآخى مع جاره وقريبه ، يصنع مصيره بعمل يديه، ينفتح على تراثه من خلال البعد المستقبلي ايضا، لا السلفي الماضي فحسب، ولا يقبل التراث الغابر ان لم يشارك هذا التراث في واقع الانسان ومرتجاه . « المصير » عنده في صيرورة دائمة ، واهم ابعاده ومقوماته في آن واحد يغدو العمل الذي يجسد معنى الاله ، العمل الذي لا يني او يكتفي ولا يتكل على النعمة وحدها ، لكنه لا يحرر الانسان بدون هذه النعمة .

ان رؤيا خليل رامز سركيس في ابعادها الذاتية والطبيعية – الكونية والالهية المؤمنة لهي رؤيا شعرية – ميتافيزيائية قبل كل شيء : « لا شعر في عمرنا . عصرنا جله نثر » (« مصير » ، ص ١٥) تتصدى لمصير الانسان بصدق ايمان وشمول يجعلانها تجربة غنية ، حية ومنفتحة . ولقد كان مبدعا في الباس نثره الجميل حلة الشعر الذي دخل في مغامرة اكتشاف الكون والانسان والله . وحين يقول هولدرلن: «ابداع الشعر : اكثر الصناعات براءة»، «لذلك اعطي الانسان اشد العطيات خطرا، اللغة، لكي يشهد على ما هو ... » ، نجد ثلاثية خليل رامز سركيس تؤكد على كرامة الانسان وطموحه، وكأنها وضعت نصب عينيها « ارادة الانسان لتصغير ذاته » – التي تحدث عنها نيتشه – لكي تشهد على قلق مصيره ، واعية لضعفه ، ومدركة لعظمته وممكناته ، ومتخطية ذلك كله لتصير مغامرة الانسان المؤمن الذي ينفتح على العصر في اكتشافاته وارتياداته المستمرة ، في حركة دائمة تعي تواصل الحقيقة ولا تتجاهل بعدها الشخصاني. لكنها ، بالاضافة الى ذلك كله ، لا تريد الوقوف عند حدود العالم : « كيف كنت ابقى لو اني من العالم وفي العالم والى العالم ليس غير؟» («مصير»، ص ٢٦) . هذا الطموح الذي يلازم انسان المغامرة الكبرى، ويؤمن بكرامة الانسان ومركزه الممتاز في الكون ، يجمع عنصري العظمة والمأساة في آن واحد ، اذ هو طموح الى المزيد في مغامرة دائمة يخالطها الشعور بان ما تبحث عنه ينأى كلما توغلت في صميمه . انه الصيرورة الهيرقليطية والصراع الذي لا يهدأ : « هنا مأساتي وعظمتي في يوم معا ، مأساة المغامرة وعظمة المصير » .

اسعد رزوق